في سبيل ثقافتنا العامة : ٢

النقد الادبي

فائدته — طريقته العملية

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

نشرنا في جريدة «البشير» ، لاربع سنوات خلت ، سلسلة ابحاث في ماهية النقد الادبي ، وتاريخه عند العرب ، وتطوره حتى عصرنا . وقد سُئلنا مرارًا منذئذٍ عن طريقةٍ عملية للنقد الصحيح ، يطبقها طلاب الصفوف العاليـة في درس الآثار الادبية ، فتمكنهم من فهم عناصر الجمال فيها ، ومن التعبير باسلوب مقبول عن ائتلاف هذه العناصر وتساوقها لاحداث التأثير الفني الظاهر في كل أثر من روائع الفكر البشري ؛ وآخر ما شعرنا بالحاجة الى هذه الطريقة في شهري حزيران وتشرين الاول الماضيين ، اثناء تصليح مسابقات المتقدمين لامتحان البكالوريا اللبنانية ، اذ رأينا اكثر الطلاب يخبطون في نقدهم هائمين بين قواعد الصرف والنحو والبيان ، دون اهتمام بالفرق الجوهري بين نقد المعنى ونقد المبنى[1] . فرأينا ان نجمع في مقال مختصر ما نراه ضرورياً من قواعد النقد الادبي ، ونبسطه باسلوب سهل ظاهر التقسيم ، فيتمكن الطلاب من حفظه ، وتطبيق اقسامه على كل قطعة يطلب منهم نقدها . . .

وغنيّ عن البيان ان النقد الادبي من اخصب الفنون الادبية فوائد للمرتاض ، ومن اوفر التمارين العقلية نتائج للمتأدب . لانه يحصر نطاق الفكر في درس قطعة معلومة فيحدّ الذهن في البحث عن محاسنها ومساوئها ، فيتتبع الفاظها وتعابيرها ، ويحلّل جملها وفقراتها ، فيشاهد الكاتب في معمله ينتقي من المعاني

١) راجع ما قلنا من هذا النقص واسبابه في مشرق السنة الحالية ، ص: ٢١٢ و٢٨١

اوفقها ومن التعابير اليقها ، ويحضر الشاعر في مختبره يختار من الصور اوفرها سطوعاً ومن العواطف ارقها تأثيراً ، ومن القوافي ابعدها صدى . ثم يسير متنقلاً من فكر الى آخر حتى الفكرة الشاملة فيعرضها على محك بصيرته وذوقه ويرتقي منها الى صاحبها ، اي المؤلف ، فيدرس عقليته ، مجتهداً في تصور زمانه ومكانه وتفهم عوامل بيئته ، وما كان لكل ذلك من التأثير الحسن او السيء ، في القطعة المذكورة.ثم يدرس الصلة بين الفكرة الشاملة والافكار الثنوية من جهة ، وبين هذه الافكار واسلوب التعبير عنها من جهة اخرى.ويعود وقد مرّن ذهنه بدرس ذهن المؤلف ، وروّض مخيلته باتباع مخيلة المصور ، ورقق شعوره بالاحساس بشعور الشاعر ، وربّى ذوقه بعرضه على ذوق الكاتب ، فيصبح ادق بصيرة ،من ذي قبل ،في درس الآثار الفنية ، واصوب حكماً على مولدات الفكر البشري ، واوفر احساساً بالجمال على مختلف مظاهره .

هذا ما يستفيده الناقد ، او ما ينبغي له ان يستفيده ، اذا اعمل بصيرته فيالقطعة المطلوب درسها ، وسار في عمله على اسلوب قويم يقوده الى لبّ النقد الادبي .

اما هذا الاسلوب فسنجتهد في تحديده ، وبسط اقسامه ، وماهية كل منها ، مرتبين كلامنا على اربعة اقسام: اولها التوطئة ، وآخرها الحكم العام:

التوطئة : ذكر المؤلف ، وتحديد مركز القطعة في تأليفه

لا يخفى انه كثيراً ما تكون القطعة المطلوب نقدها منتخبة من تأليف مشهور ، فقد تكون وصفاً لليل او للجواد او للقتال ، مأخوذاً من احدى المعلقات ، او رأياً لابن خلدون في تأثير الهواء في الاخلاق ، او درساً حكمياً للغزالي ، او ما شاكل.فينبغي للناقد ، والحالة هذه ، ان يجتهد في تبيان الصلة بين هذه القطعة المنفصلة ، وما فصلت عنه من سائر قطع الكاتب او الشاعر في تأليفه ذاك ، مشيراً الى آرائه المبثة ونتائجه التي تجب معرفتها لفهم القطعة المذكورة . ومن ثمَّ يتطرّق الى ذكر ما يعرفه عن المؤلف ، مما يفيد الموضوع الحالي ، وما وقف عليه من الظروف المكانية والزمانية التي دفعت الكاتب

الى تأليف كتابه عامة وهذه القطعة خاصةً . اما اذا كانت القطعة منفردةً ، مستقلةً بنفسها ، كأن تكون مثلاً خطبةً تامةً لعلي بن ابي طالب ، او مقامةً للهمذاني او الحريري ، او قصيدةً برأسها للمتنبي او لابي تمام ، او رواية كاملة للاصبهاني ، او مقالة عصرية ، او ما شاكل ، فلا حاجة الى التوقف عند ذكر الصلة بينها وبين سائر آثار الكاتب ، بل يُكتفى بذكر المؤلف ، والظروف التي قد يكون ذكرها ضرورياً جداً اذا كانت القطعة تاريخية او تمت الى حادث تاريخي ، كما نرى في رسائل علي الى معاوية ، وفي قصائد المتنبي وفي اكثرية مقالاتنا وقصائدنا العصرية . فاننا لا نفهم حق الفهم رسائل نهج البلاغة ، ولا مدائح المتنبي لسيف الدولة ، ولا مقالات ولي الدين يكن مثلاً ، ان لم نلمّ ، وان سطحياً ، بحروب علي ومعاوية ، وبمعارك سيف الدولة ، وبظلم عبد الحميد ومناهضته للاحرار .

وبيّنٌ ان الطالب بعيدٌ عن ان يدرك ، وحده ، هذه المعلومات ، فيجب على المعلّم اذاً ، او على الفاحص ، ان يقرن القطعة المطلوب نقدها بما يلزم من الافادات عن المؤلف وذكر الحوادث الظرفية التي دفعته الى تأليفها . فيكون من واجبات الناقد ان يسبك ذلك بجملة مقبولة واسلوب مختصر ، متحاشياً التطويلات والشروح النافلة التي لا تتناسب وسائر اقسام النقد ، فيضيع وقته ووقت مطالعه ، ويخرج عن الموضوع المقصود .

القسم الاول: تحليل القطعة

نريد بالتحليل درس تكوين القطعة قسماً قسماً ، وتفكيكها جزءاً جزءاً ، مع اظهار اللحمة بين هذه الاجزاء ، وعرضها بطريقة مصغّرة تغني المطالع عن قراءة النص المذكور . واذاً فعلى الناقد أن لا يخلط بين التحليل والحل المعبّر عنه في عرف البيانيين « بان يعمد الكاتب الى ما نظمه غيره فيرويه بالنثر » ، وان لا يخلط ايضاً بين التحليل والشرح ، وهو أن يعمد الى فكرة الكاتب فيوسّعها او يعلق عليها . فكم من الطلاب ، اذا طلب منهم نقد قصيدة من مدائح المتنبي ، ينصرفون سريعاً الى حلها بيتاً بيتاً فيوردون بنثرهم المضطرب الركيك ، ما اودعه الشاعر نظمه الرشيق المتين . واذا فُرض

عليهم نقد خطبة من نهج البلاغة ، يسرعون الى شرح بعض الفاظها فيذكرون ما يلفت نظرهم فيها من نكات اعرابية او نحوية ويكتفون بتعليق شيء من الشرح على بعض فقراتها ... ليس هذا من التحليل في شيء . اما التحليل الذي نقصد ، وهو العمل التمهيدي للنقد بحصر المعنى ، فيقوم بأمرين :

١ً – غاية المؤلف

لكل عاقل غاية في ما يتفوّه به من الاقوال ، او في ما يأتيه من الافعال ، فكيف بالمؤلف يذيب دماغه ويحيي لياليه في قرض مقطوعة ، او تحبير مقالة ، او تدبيج خطبة ! فاول ما يجب علينا اذاً ، هو التفتيش عن غاية المؤلف في قطعتـه . وقد يُقال لهذه الغاية الفكرة العامة ، او الشاملة ، او المسيطرة ، او قصد المؤلف ... وكأنها كلمات لا عبرة باختلافها الظاهر اذ ان مضمونها واحد يكون تارةً وصف حادثة ما ، او درس اخلاق ، او تصوير مظهر من مظاهر الحياة ، او ايراد حكمة ، او سرد قصة واقعية او مخترعة ، او مدحاً او هجاء او غير ذلك من فنون الانشاء المتعددة التي يسير بينها المنشئون ، فيختارون ما يروقهم ، ولا اعتراض عليهم في شيء من ذلك . اذ لا يمكننا ان نلوم المؤلف لتفضيله موضوع فخر مثلاً على سرد حكاية ، او لميله الى درس بعض الاخلاق عن درس مظاهر الطبيعة . والخلاصة ان للمؤلف ملء الحرية بانتقاء اي موضوع شاء ، على ان يظلّ ذاك الموضوع ضمن الحدود الادبيـة التي يقرّها الذوق الكامل المهذّب ، وتتطلبها اللياقة الانسانية الجديرة بالاعتبار والاحترام .

٢ً – طريقة المؤلف للوصول الى غايته

ان وجود الغاية او القصد يفرض وجود طرق واساليب يسير عليها المؤلف للوصول الى تلك الغاية ، او لبلوغ ذاك القصد . وهنا ندخل القسم الثاني من تحليل القطعة ، الا وهو تفكيك اجزائها ، واحداً بعد واحد ، الاطلاع على اللحمة بينها ، والوقوف على نوع ترتيبها بعضها الى بعض لنفهم الطريقة التي ادّت بصاحبنا الى غايته . وبكلمة اخرى علينـا ان نحلّل الافكار الثنوية في القطعة لنرى تساوقها كلّها الى تحقيق الفكرة العامّة ، وهو مـا يسمّى بدرس

التقسيم ، او باعادة رسم القطعة المحللة . . مثلا ، لو فرضنا قصيدة ينظمها المتنبي في سيف الدولة ، « لكل امرئ من دهره ما تعودا ! » مثلاً ، فتكون غايته فيها او فكرته العامة المدح . اما ما يورده من مفاخر سيف الدولة كتعوده الغلبة ، وذكائه ، وترفعه عن الملوك ، وبطشه بالروم ، وادلاله على الخليفة ، وحكمته ، وكرم سجاياه وأريحيته الخ . . . فيكون من الافكار الثنوية التي يجب علينا تعدادها والاشارة اليها في القصيدة واحداً بعد واحد ، ثم ترتيبها على النسق الذي اوردها به الشاعر . علينا ان نقوم بذلك على طريقة وضعية بحتة، اي خالية من كل عبارة قد يظهر منها الذم او المدح . لان واجب الناقد الاول ان يبسط غاية المؤلف الذي ينتقده ، ويحلل اقسام مؤلفه ، على اسلوب خارجي محض وافر البرودة ، كثير الدقة الوضعية ، يترفع عن العاطفة والميل . حتى اذا فرغ منه تناوله بالنقد ، وهو القسم الثاني من بحثنا .

القسم الثاني : النقد

اما النقد فيدور على شيئين ايضاً : نقد المعنى ، ونقد المبنى .

١ – نقد المعنى

تقدَّم أن نقد الفكرة العامة ، او غاية المؤلف ، لا يتيسر عادةً ؛ وعليه يجب الانصراف الى نقد التقسيم . ويكون بالنظر في تلك الاجزاء التي عرضناها سابقاً بطريقة وضعية ، فنأخذها الآن فكراً فكراً ، ونحكم على كل واحد منها : اولاً بحد نفسه ، ثم بالنظر الى مركزه من التأليف . ولا بدَّ هنا من ايراد مثل يوضح هذه القواعد النظرية . فلنرجع الى قصيدة المتنبي ، ولنسأل نفسنا إزاء كل معنى: هل هذا حسن ام لا ؟ وهل هو موافق؟ مثلاً : هل وصف سيف الدولة بالبطش حسن في حد نفسه ؟ فان كان الجواب نعم ، انتقلنا الى السؤال الثاني وهو : هل وصف سيف الدولة بالبطش موافق لغاية الشاعر في هذه القصيدة ؟ فان كان نعم ، ثنينا بسؤال جديد فقلنا : وكيف ذلك ؟ ثم انتقلنا الى المعنى الثاني ، وهكذا الى ختام القصيدة . ولكن لا يتوهمنَّ الناقد ان من واجبه تعداد الاسئلة ، او سبكها كلها بقالب واحد ، او الوقوف بها عند كل معاني القطعة ! لا فان كثيراً من القطع لا

يحتمل مثل هذا التدقيق في البحث ، وان كثيراً من المعاني لا تستحق هذا الاهتمام . فعلى الناقد ان يعتمد على بصيرته وحسن ذوقه . اما اذا كان الجواب عن السؤال الاول او الثاني سلبيًّا ، فيلزمنا القول: لماذا ؟ وما هو المعنى الاحسن ؟ او ما هو الاوفق ؟ وكيف كان يجب على الشاعر ان يسير حتى يصل الى غايته على اهون طريق ؟

ولا يخفى ان للثقافة الادبية الحقّة ، وللمادة النقدية الصحيحة ، وللذوق السليم المهذّب الدور الاول في تحقيق هذا النقد ، وافراز المعاني الموافقة من غيرها ، وترتيبها كلها وفقاً لمنفعتها واهميتها بالنسبة الى الغاية المتوخّاة ، ولاسيا ان كانت القطعة متعدّدة الافكار ، متباينة الاقسام ، متشعبة المقاصد الثنوية ، كما نرى في اكثر قصائدنا القديمة .

٢ – نقد المبنى

ولا يتصورنّ الناقد انه اذا انتهى من هذا العمل ، فقد اتمّ مهمته ونال الفائدة الناتجة من النقد الادبي ! لقد قام بشيء مهم ، ولكنه لم يقم بكل شيء . نقد المعنى ، فبقي عليه نقد المبنى . وما المبنى الّا الطريقة الخاصة بكل مؤلف ، يلجأ اليها اذا ما اراد ان يوصل ما يجول في خاطره ، وما يختلج في فؤاده ، وما يتمثّل امام مخيّلته ، الى قرّائه . ما المبنى الّا الانشاء اللاصق بشخصية الكاتب الى درجة دفعت بوفون الى القول : « ان الانشاء هو الرجل نفسه ! » ما المبنى الّا الاسلوب المندمج في روح الاديب الى حدّ جعل فاكيه يقول: « انما يخلد الانسان باسلوبه ! » بهذا المعنى الواسع نفهم المبنى ، ونرى من الضروري ان يتبسط الطالب في نقده . واوّل ما يجب عليه ان يقف على الصفة العامّة لهذا المبنى ، سواء كان اسلوباً نثرياً بما يجره من توازن بين الفقرات وتوفّق في اختيار المفردات ، او شعرياً بما يقوم به من وزن ، ورويّ ، وصناعة . ثم عليه ان يلاحظ العلاقة بين الاسلوب الانشائي المستعمل ونوعيّة الغاية وما يقود اليها من الافكار الثنوية ، فيسأل : هل يوافق هذا الاسلوب الفسيح او المادي ، او المقتضب ، او العصبي او . . . للتعبير عن المعاني العضبية ، او الحكمية ، او العاطفية الساكنة او . . . ثم ان كان كل ذلك موافقاً ،

هل احسن الكاتب باستعمال اسلوبه ؟ وكيف ذلك ؟ وان لم يحسن ، اي اسلوب كان عليه ان يستعمل ؟ ولماذا ؟

وبعد هذه الملاحظات العامة ، ينحدر الناقد الى جمل المؤلف ، فيتتبع ابتكاراته، وتعابيره الشخصية . وهنا المجال افسح من مجال المعنى ، اذ لا يخفى انه من الاسهل بما لا يقاس على الكاتب ، ان يكون مبتكراً في تعابيره ، من ان يكون مبتكراً في معانيه ، لان « الشعراء لم يغادروا متردّماً» . بهذه التعابير الفردية تبدو مظاهر شخصية الكاتب الادبية ، فعلى الناقد ان يتتبعها حتى يؤلف منها صورة لتلك الشخصية ، وليجتهد في ان تكون تامة . ثم ينحدر ايضاً الى نقد الكلمات ، فيرى فيها كما رأى في التعابير ، حسنها الذاتي ، وموافقتها للمعاني . ويجب عليه في هذا القسم ان يقوم بما يلزم من الشروح اللغوية لاسيما في ما خص الكلمات الوضعية ، او الدقيقة ، او التي استعملها المؤلف عن قصد خاص ، فيفتحها الواحدة بعد الاخرى ، ويستخرج مضمونها فيعرضه على الفكرة التي شاء المؤلف الباسها تلك الكلمة . ومن الضروري هنا ان يستعمل القاموس ، لان في مؤالفة كتب اللغة من النفع ما لا يكاد يتصوره اكثر اساتذتنا ، وما لا تهتم به ، لسوء الحظ ، جمهرة طلابنا . فينتج من كل ذلك ان الاساتذة يتعودون شرح الكلمات بمترادفاتها — والمترادف الحقيقي في اللغة قليل وقليل جداً ، ان لم نقل غير موجود ! — فينسون الفروق الدقيقة بين كلمتين تشتركان بالمعنى العامّ ولكنها تتباينان بما تجره كل منهما من الجو الخاص بالمعاني الثنوية ، فتقلقل المعاني ، اذ ذاك في ادمغة التلاميذ ، فيلجأون الى التقريب ، في فهم النص الادبي ، وخصوصاً في شرحه .

وفي هذا القسم ايضاً ، مجالٌ للاشارة الى ما يستحق الذكر من الملاحظات النحوية ؛ ولا نريد بها اعراب الكلمات ، كما قد يتوهم البعض . فالاعراب ليس من النقد الادبي في شيء ، وان بدا لازماً احياناً لفهم تركيب دقيق او لتحديد موقع لفظة ما . وعلى الناقد ان يأخذ منه بمقدار ، وان ينتبه خصوصاً لما يهم الوقوف عنده من التراكيب الخاصة او التعابير التي قد لا توافق مشهور المألوف

عند النحاة ، كأن يسمع مثلاً ، في نقده قطعة من روايات الاغاني ، احد اشخاص ابي الفرج يقول مستفهماً : «وانا اصنع ماذا ؟» فيشير الى استعمال اداة الاستفهام بعد الفعل ، فيدلّ على معرفته القواعد من جهة ، وتيقّظه لكل بادرة تستحق الذكر من جهة اخرى.

وعلى الجملة نرى ان واجب الناقد ، في ما خصّ القواعد، لغويةً كانت او نحوية ، يقوم بان يستعملها ، لا لاضجار المطالع باعراب مفردات القطعة او بشرح الفاظها لفظة لفظة ، بل للاشارة الى ما لعلّه يفيد الغاية العامّة من النقد بأن يوفر له ابداء بعض الملاحظات المهمة.

الختام : الحكم العامّ

جرينا في نقدنا ، حتى الآن ، على اسلوب تحليلي محض بادئين بالمركّب فالبسيط فالابسط ، منحدرين من الغاية العامّة الى الافكار الثنوية ، ومن الاسلوب الاجمالي ، الى التعابير ، فالى الالفاظ . وهو افضل اسلوب للوقوف على مركبات القطعة الفنية واحداً واحداً ، ولمس اللحمة الظاهرة او الخفيّة التي تجمع شتاتها وتجعل منها وحدةً ادبية . وقد آن لنا ان ننتقل الى استعمال الاسلوب الجمعي ، فنلقي الحكم على هذه الوحدة ، بعد أن القيناه على اجزائها. ويكون ذلك بتلخيص ما تقدّم من الملاحظات ، وباختصار حكم نهائي عام نحدّد به القطعة المفروضة ، ذاكرين ما تقتضيه من التعليق من حيث الادب والفنّ او الاخلاق او التاريخ ، متجنبين ، في هذا ايضاً ، ما تجنبناه سابقاً من الاندفاع العاطفي مع المؤلّف او عليه ، ومن الملاحظات العامّة ، وطرق التعجّب المبتذلة التي تفيد كل شيء ولا تفيد شيئاً . ثم نرتقي مجالاً اعلى نلقي منه نظرة اعمّ واشمل تتناول شخصية المؤلف ، صاحب القطعة ، بجملها اذا امكن ، فنصفها بحكم مختصر ايضاً ، ونبيّن موافقة القطعة المفروضة لما نعرفه من اسلوبه الانشائي وطريقته الفنية.

هذا ما رأينا بسطه من قواعد النقد الادبي ، فعسى ان يكون فيه ما يدفع متأدبينا الكرام الى التبصر في ما يقرأونه من النصوص الادبية ، ليتفهموا ما فيه من جمال ، ويقتربوا منه في آثارهم.